ألفية ابن معطي في ميزان شرّاحها
شرح عبد العزيز بن جمعة الموصلي أنموذجا

ملخص

لعلّ نظم قواعد النّحو في قصائد طوال عُرفت بالألفيات في تاريخ النّحو العربي هي ظاهرة متميّزة انفردت بها اللّغة العربية عن غيرها تعظيما لشأن نحوها، وقد عرف تاريخ النّحو أكثر من ألفية أشهرها ألفية يحي ابن معطي وألفية ابن مالك وألفية السّيوطي وسواها، فهذه الألفيات على تباين ناظميها أبانت عن مدى اقتدار القدماء في التحكّم بناصية اللّغة ومعجمها وأساليب تعابيرها وممّا يشهد بقيمة هذه الألفيات أنّها حازت الفضل عند علماء الفنّ، كما أنّها عُنيت بالشّروح الكثيرة والتعليقات المختلفة وصاحبت نصوصها بعض المؤلّفات المعروفة كخزانة الأدب للبغدادي وشرح ابن عقيل وغيرهما.

ولمّا كانت ألفية ابن معطي أوّل تلك الألفيات فقد منحها الشرّاح اهتمامهم من الدّرس والتّفسير قصد الكشف عن غوامضها وتبيان ملامح الدّرس النّحوي في ثناياها، ولكي تتحدّد جهود ابن معطي وما أضافه من جديد وتأثير في من بعده كان لا بدّ من تتبّع ذلك في شرح من شروح ألفيته الذي به يتّضح مقدار تفوّقه وميزة خصوصيته وذلك بموازنة عمله هذا مع أعمال غيره في الفنّ نفسه، لاسيما في مجال النّظم.

د. زين الدين بن موسى

قسم الآداب واللّغة العربية
جامعة قسنطينة1
الجزائر

Résumé

La production scientifique sur la grammaire a connu, chez les arabes, une évolution en quantité et en qualité, dans le but de jeter les fondements des sciences du langage.

Au quatrième siècle de l'hégire, elle a consisté à donner aux règles de grammaire une forme rythmée (poétique), pour qu'on puisse la retenir facilement. Formuler les règles de grammaire en poèmes composés de milles vers, appelés *El-Alfya*, représente une spécifiée de la langue arabe. L'histoire de la grammaire a connu plusieurs de

مقدمة

انفرد علماء القرن الخامس الهجري و من بعدهم بنظم العلوم في قصائد اعتمادا على بحر الرّجز لسهولة أوزانه وملاءمتها للمعاني المتغيّرة؛ حيث يمكن للنّاظم أن ينتقل من موضوع إلى آخر دون أن يجد عنتا في ترويض حرف الرّوي ومقطع القافية، فما كان من ذلك إلاّ أن استخدمه العلماءُ في جمع قواعد العلوم ومصطلحاتها على مثال متقارب تختصره أبيات شعرية تحوي المجمل و تلخّص كلّ مطوّل، وهذه الظاهرة الإبداعية من جهة والتعليمية من جهة أخرى لم تقتصر على علم

© جامعة قسنطينة 1، الجزائر 2013.

ces *Alfya*, les plus célèbres étant celles d'Ibn-Mooti, d'Ibn-Malkek et d'Essouyoti. Dotées d'une maitrise et une connaissance lexicale et stylistique parfaites, ces œuvres servirent de base à plusieurs ouvrages comme ceux d'El-Baghdadi et d'Ibn Okeil.

بعينه بل انتشرت في جميع العُلوم بما فيها من لغة وفقه وأصول وحتّى المصطلحات المتعلّقة بعلم الحديث والفرائض، وقد لقي هذا اللّون من النّظم رواجا عند طلاّب العلم أوّلا والعلماء ثانيا بوصفهم من نظموها وعملوا على شرحها تيسيرا لفهمها وإدراك جزئيات مسائلها التي تبدو للمتعلّم أنّها مستغلقة تحتاج إلى تفسير أو أنّ اللّفظ المُستخدم قابل للتأويل.

وأشهر أنموذج في مجال نظم العلوم ما اصطّلح عليه باسم الألفيات التي انتشر تأليفها في النّحو العربي خاصّة؛ حيث فتح هذا الضرب من النّظم غمار التّنافس بين العلماء الأقران في كلّ عصر بعد القرن الخامس الهجري، أو أنّ مبلغ الاجتهاد لا يظهر عند علم مبرّز إلاّ بنظم الألفية، فيكون مجدّد المائة التي شهد زمانَها، وذلك لوجود منحنى متصاعد في نظم الألفيات بدءا من أواخر القرن السّادس؛ حيث كان لابن معطي فضل السّبق وتبعه من بعد ذلك ابن مالك و السّيوطي وعلي بن محمد الأجهوري، فهم جميعا حاولوا أن يتفاوتوا في نوعية النّظم و طبيعته إمّا بإعادة ترتيب المسائل النّحوية أو إدماج مسائل الصّرف ضمن النّظم لكي تجتمع الفائدة في ما توارثه العلماءُ عن مضمون كتاب سيبويه، فكان لا بدّ للألفية أن تشتمل على كلّ ذلك وألاّ تغفل جزئية يمكن أن تقدح في جودتها.

وقد ذاع صيت هذه الألفيات من خلال كثرة شرّاحها؛ حيث يشرع ناظمها أوّلا في فكّ رمزها و تفسير مجملها بعرضها على أقرب طلاّبه كما كان الشأن مع ابن مالك، فحينما يجد هذا الشرح قبولا لدى طلبة العلم ينشرونه في الآفاق فيتلقّفه علماء الأمصار ويجتهدون في النّسج على منواله، بأن يتفاضلوا في شرح كلّ ألفية و فق منهج معيّن ويدلّ على ذلك تعدّد شروح كلّ ألفية من الألفيات الأربع المعروفة؛ حيث لا يقلّ عددُها عن خمسة شروح و تكتمل مكانة الألفية العلمية عند العلماء حينما يتعقّبونها بالحواشي ويذيّلون عليها بالهوامش إتماما للفائدة وتبيانا للقيمة.

ولم تكن ألفية ابن معطي بوصفها حائزة فضل السّبق بمعزل عن معترك الشروح لكونها أنموذجا فريدا في زمانها، لهذا فقد تصدّر لشرحها جملة من العلماء المعاصرين لابن معطي أو أولئك الذين جاؤوا بعده واحتفوا بألفيته في المشرق والمغرب، وممّا يشهد على عناية العلماء بألفية ابن معطي هو بلوغ عدد شروحها سبعة عشر شرحا، منها ما وصلنا و حقّق و بعضها ما زال مخطوطا محفوظا في مكتبات الغرب ومنها عدد بترت أوراق مخطوطه، وسنكتفي في هذه المقال بعرض منهج شرح معروف متداول لكي تتّضح من خلاله ملامح الدّرس النّحوي عند ابن معطي و ذلك وفق رؤية من تعقّبه.

أوّلا: ملكة النّظم عند ابن معطي

لقد ظهر المتن المنظوم في تاريخ الدّرس النحوي عند العرب في القرن الثاني الهجري[1]، ولكنّ العرب لم يكونوا أوّل من اخترعه، بل كانت له أصول عند اليونان، نرى ذلك عند هوميروس في ملحمته التاريخية الإلياذة [2]، وقد بدأ ظهوره عند العرب حين اتّسعت معارفهم و تنوّعت لديهم الثقافات وزاد إقبالهم على التعلّم وقد أحسّوا حينذاك بحاجتهم إلى نوع خاصّ من التّصنيف يعينهم على حفظ المعلومات ونقلها، فاستعانوا على ذلك بالشّعر الذي امتلكوا ناصيته، لأنّه يشكّل وسيلة مشوّقة ويسهّل على المتعلمين حفظه[3]، فظهر بذلك الشّعر التعليمي الذي هو فنّ قديم عرفه اليونان منذ القرن الثامن قبل الميلاد على يد شاعرهم العظيم هيود في عمليه العظيمين (الأعمال والأيّام) و(أنساب الآلهة). وقد اقترنت نشأة الشعر التعليمي عند العرب مع انتشار المعارف والثقافات والتعلّم والتعليم، واستهلّوا ذلك بأراجيز العجّاج وابنه رؤبة بوصف شعرهما أنموذجا لمعاجم الغريب و النّادر في اللّغة، ثمّ لجأ جيل من العلماء في العصرين الأموي والعباسي إلى نظم قصائد تنوعت مضامينها بين النّحو والصّرف والفقه والتّاريخ والفرائض، وأشهرها في مجال اللّغة مقصورة ابن دريد ومُلحة الإعراب للحريري[4].

وقد جارى علماء القرن السّادس من قبلهم في مضمار النّظم حيث برز أكثر شهرة ابن معطي وابن الحاجب وابن مالك وغيرهم، وميزة النّظم عند هؤلاء أنّها سلسة في تناول المسائل النّحوية و الصّرفية بشكل متوازن دون إخلال بالمفاهيم، ولعلّ ما تركه ابن معطي من آثار شعرية تشهد بتفوّقه و قدرته على النّظم؛ حيث رصد له أصحاب التراجم والطّبقات مقطوعات شعرية كثيرة دلّ على غزارتها ديوانه (5) الذي ضمّته مكتبة مؤلفاته، ولم يكتف بالمعاني التي تروق للشّعراء في العادة أن يقصّدوا فيها القصائد، بل إنّه نظم كتبا نحوية بأكملها كشرح أبيات سيبويه التي تقع في مجلّدين ضخمين على ما أخرجته المطابع الحديثة من شرح السيرافي، كما أنّ ابن معطي قد نظم كتاب الجمهرة في اللّغة لابن دريد ويقع هو الآخر في ثلاثة مجلّدات ضخام، وهذا ما يدلّ على عبقريته في هذا المجال إذ لا يُعقل أن تنصاع أيسرُ القوافي لشاعر لكي يقيّد بها معجما لغويا يحوي قائمة كبيرة من الألفاظ أغلبها من الغريب والحوشي، وما يؤكّد هذه الحقيقة بشكل لا يدع معه مجالا للشكّ هو محاولة نظمه لكتاب الصّحاح في اللّغة للجوهري، إلاّ أنّ يد المنيّة أخذته ولم يتمّه، كما تسنّى له ولوج باب القراءات حيث قدّم لطلاّب هذا العلم قصيدة تحوي ضوابط القراءات السّبع على كثرتها واختلاف أحكامها، بالإضافة إلى نظمه كتابا في العروض؛ أي أنّه احتضن أوزان الشّعر بقصيدة نُسجت أبياتها بمصطلحات علم العروض نفسه[6]، وهذا ما يبرز مدى اقتداره وطواعية ملكته التي تستجيب لكلّ طموحاته في مجال تيسير أساليب التعليم و التعلّم.

ثانيا: شروح ألفية ابن معطي في تاريخ الدّرس النّحوي

حظيت ألفية ابن معطي بوصفها باكورة الألفيات في تاريخ الدّرس النّحوي بشروح عديدة تمايزت منهجا و مضمونا من حيث سعة الشّرح و اقتضابه، وقد حاول بعض الباحثين المعاصرين استقصاء تلك الشروح في مظانّها بالعودة إلى خزائن المخطوط والفهارس المعدّة لذلك فحصروا جملتها في سبعة عشر شرحا نوردها على النّحو الآتي:

1 – شرح الدّرة الألفية لنجم الدّين محمد بن أبي بكر بن علي الموصليّ الشافعيّ المعروف بابن الخبّاز المتوفّى سنة631هـ[7].

2 – الغرّة المخفيّة في شرح الدّرة الألفية لشمس الدّين أحمد بن الحسين بن أحمد ابن معالي بن منصور بن علي بن الخبّاز الأربلي الموصلي النّحوي الضرير، المتوفّى سنة639هـ، وقد قام بتحقيقه الدّكتور عبد الرّحمن أحمد محمود الكبش (رسالة دكتوراه، بكليّة اللّغة العربية بالأزهر عام1975هـ) وجاء في شرح الشريشي ما يفيد أنّ لابن الخبّاز الضرير شرحين على الدّرة حيث قال الشريشيّ: (وقال ابن الخبّاز في أحد شرحيه: إنّ اللاّم متعلّقة بـ(اقتضوا) وقال في الشّرح الآخر: إنّها متّعلقة بـ(حدا) أو(اقتضوا) أو (اجعل) وهو أولى، وهذا فيه نظر بل الأولى ألاّ تتعلّق ب(أجعل) البتة، لأنّ علمهم هو علّة سؤالهم أن يجعل لهم لا علّة جعله لهم)[8]، وقد طبع جزء منه بتحقيق حامد محمد العبدلي، دار الأنباء، بغداد، العراق.

3 ـ شرح الدّرة الألفية لمحمد بن يحي بن هشام الخضراوي[9]، المتوفّى سنة646هـ.

4 ـ شرح الدّرة الألفية لعز الدّين أبي قرشت الحسن بن عبد المجيد بن الحسن المعروف بسعفص المراغي المتوفّى سنة666هـ.

5- الصفوة الصفيّة في شرح الدّرة الألفية، لتقي الدّين أبي اسحاق إبراهيم ابن الحسين بن عبيد الله بن إبراهيم بن ثابت الطائي النيلي، من علماء القرن السّابع الهجري.

6- التعليقات الوفيّة بشرح الدّرة الألفية، لجمال الدّين أبي بكر محمد بن أحمد ابن محمّد بن عبد الله بن سحمان الوائلي البكري الأندلسي الشريشي، المتوفّى سنة685هـ، وقد قام الدّكتور محمد محمد سعيد بتحقيق الجزء الأوّل منه(رسالة دكتوراه بكلية اللّغة العربية بالأزهر عام1976هـ).

7- الدّرة الألفية في شرح الدّرة الألفية لمجهول، ولهذا الشرح نسختان:

الأولى: بمكتبة شهيد علي بالمكتبة السليمانية بتركيا تحت رقم 2305 نسخت عام 686هـ.

الثانية: بالمتحف العراقي تحت رقم1353، وهي مبتورة من أوّلها وآخرها[11].

8- شرح الدّرة الألفية في علم العربية لعز الدّين أبي الفضل عبد العزيز ابن جمعة بن زيد القوّاس الموصلي، المتوفّى سنة696هـ، وقد قام بتحقيقه الدكتور عبد الله

الحسيني أحمد هلال(رسالة دكتوراه بكلية اللّغة بالأزهر عام1978م)، وقد طبع بتحقيق الدكتور علي موسى الشوملي، عام1405هـ، نشر مكتبة الخريجي بالرّياض، كما طبع مرّة ثانية في دار البصائر بالجزائر، سنة2007م بمناسبة استضافة الجزائر لتظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

9- شرح الدّرة لبدر محمد بن يعقوب بن إلياس الدّمشقي، المعروف بابن النّحوية[12] المتوّفى سنة718هـ، وسمّاه (حرز الفوائد وقيد الأوابد) وقد أفاد منه الرّعيني في شرحه للدرّة الألفية وعوّل عليه كثيرا.

10- شرح الدّرة الألفية لشهاب الدّين أحمد بن محمّد عبد الوالي بن جبارة المقدّسي المرداويّ الصّالحي، المتوفّى سنة728هـ[13].

11- شرح الدّرة الألفية للجزري عبد المطّلب بن المرتضى الحسيني الشريف، المتوفّى سنة735هـ[14].

12 - شرح الدّرة الألفية لزين الدّين عمر بن مظفّر بن عمر بن محمّد بن الورديّ الشافعي، المتوفّى سنة749هـ. واختلف في اسم هذا الشرح بين عنوانين هما:(ضوء الدّرة)[15]،(الدّرة الشفيّة على الألفيّة).

13 - شرح الدّرة الألفية للرّعيني أحمد بن يوسف بن مالك الألبيريّ الغرناطي أبو جعفر الأندلسي، المتوفّى سنة779هـ، وهو كما ذكر المستشرق بروكلمان موجود بمكتبة برلين الوطنية برقم6554، كما ذكر أيضا أنّه في بودليانا برقم 1201/1، 1209، 209/2، وفي الأمبروزيانا برقم.44

14- شرح الدّرة الألفية للهواري محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي المالكي، أبي عبد الله الأعمى النّحوي، المتوفّى سنة780هـ، قيل: إنّه في ثمانية مجلّدات، وقيل: في ثلاثة مجلّدات.

15- الصدفة المليّة بالدّرة الألفية لأكمل الدّين محمد بن محمود بن أحمد البابرتي الحنفيّ، المتوفّى سنة786هـ.

16- شرح الدّرة الألفية لأبي المحاسن يوسف بن الحسن بن محمّد الحمويّ الشافعي، المتوفّى سنة809هـ.

وقد اختلف أصحاب التراجم في هذا الشرح، فبعضهم يجعله شرحا لألفية ابن معطي، وآخرون يجعلونه شرحا لألفية ابن مالك.

17- نعمة المعطي في تصحيح ألفية ابن معطي لزين الدّين شعبان بن محمّد الأثاري، المتوّفى سنة828هـ[16].

ثالثا: منهج عبد العزيز بن جمعة الموصلي في شرحه لألفية ابن معطي

ينحو ابن جمعة في شرحه لألفية ابن معطي منحى المتبصّر بقضايا النّحو العربي وجزئياته وعلل مسائله وضواحد الحجج التي تردّ كلّ شبهة عن إيهام قد يرد في متن نصّ ما، فهو يعمد إلى البيت فيشرحه ويفصّل القول في مسائله بحسب موضوع القضية النّحوية التي تضمّنها البيت، ويحاول بسط المجمل بداية بشرح المصطلحات ثم يعمد إلى قراءة البيت قراءة نحوية برؤية النّحاة الأوائل ثمّ يكرّ على مبتدأ الشرح و يُعمل فيه رأيه بحيث يناقش المفاهيم و الظواهر النّحوية و يحتجّ لها و ضدّها بشواهد تعضّد براهينه، ومثال ذلك شرحه لحدّ الاسم وعلاماته تعقيبا على قول ابن معطي في ألفيته:

فالاسم عرِّفه وأخبر عنه وثنّه واجمعْه أو نوِّنْهُ

واجرُرْهُ أو نادِهِ أو صَغِّرهُ وانعتْه أو أنِّثه أو أضمِرْهُ[17]

فعلامة التعريف ليست مقصورة على الألف واللاّم كما هو شائع بين جمهور المتعلّمين، بل إنّ اللاّم والميم هما المقصودتان بالتعريف إمّا على لغة الجمهور أو لغة طيء، حيث يبدلون لام التعريف ميما، نحو قوله صلّى الله عليه وسلّم(ليس من امبرّ امصيام في امسفر)[18]، يقول ابن جمعة: (وإنّما قال: (عرّفه) ولم يقل باللاّم ليعمّ اللاّم والميم كما في لغة طي، ولأنّهم يبدلون من اللاّم ميما، ولأنّ المعرّف عند سيبويه اللاّم فقط[19] ، والهمزة أتى بها توصّلا إلى النّطق بالسّاكن، وعند الخليل: كلاهما[20]. فقال: (عرّفه) ليعم المذهبين)[21]، و المقصود بالمذهبين هما اللّغتان اللّتان ارتضتهما المدرسة البصرية لتقعيد مسألة التّعريف إذا ما دخلت اللاّم على الاسم أو استعاضوا عنها بالميم.

أمّا عن موقف ابن جمعة من النّحو والنّحاة فيظهر من خلال مذهبه النّحوي الذي يتجلّى في تشيّعه للبصريين؛ حيث عادة ما ينقض أراء الكوفيين ويقوّض حججهم بما تجمّع لديه من رصيد معرفي يجاري به نحاتهم، وإن لم يجد سبيلا إلى ذلك فهو يبرز مقدرته في الحجاج و الاستدلال على صحّة رأيه مع نظرائه في المذهب نفسه، وممّا يشهد بذلك تفنيده لرأي الأخفش[22] في منع الاسم من الانصراف إذا ما اجتمعت فيه علّتان علّة الوصف وعلّة العلمية، يقول ابن جمعة: (واعلم أنّ ما احتجّ به الأخفش ضعيف لوجهين، أمّا الأوّل فلأنّ منع الصّرف يتعلّق باللّغط، فالمراد يكون الاسم وصفا في الأصل، إن وضعه لذلك، وحينئذ لا يتجرّد عن الوصف إلاّ لمانع، ولو لم تعتبر فيه الصّفة لما جمع جمعها، ولمّا دخل عليه الألف واللاّم، وأمّا الثاني، فلأن نحو: (حاتم وحارث) إنّما انصراف لامتناع اعتبار الصفة و العَلَمية في حكم واحد لتنافيهما)[23].

أمّا في باب التّرخيم عند العرب فقد ساق النّحاة قول جرير:

أَلاَ أَضحَتْ حِبَالُكُم رِمَامَا وَأضحَتْ مِنكَ شَاسِعةً أُمَامَا[24]

هَكَذَا رَواهُ "سيبَويه"، ورَواهُ "المبرّدُ" (وما عَهدِي كَعَهدِكَ يَا أُمَامَا)[25]

فعلى رواية "سيبويه" يكون الشّاعر قد رخّم (أمامة) وهو غير منادى على لغة من ينتظر للضّرورة، وعلى رواية "المبرّد" يكون قوله: يا أماما منادى مرخّما فلا شاهد فيه لـ "سيبويه".

قال "ابن مالك" في (شرح الكافية):«والإنصاف يقتضي تقرير الرّوايتين ولا تُدفع إحداهما بالأخرى[26]»، لأنّ لغة التّرخيم في الرّوايتين حاضرة، فالعرب رخّمت في النّداء وغيره كما هو ملاحظ من هذه الشّواهد

ويشهد لسيبويه أيضا قول ابن حبناء التّميمي:

إنَّ ابنَ حَارِثَ إن أشْتَق لِرُؤيَتِهِ أَو أمتَدِحهُ فإنَّ النَّاسَ قد عَلِمُوا[27]

وقول ابن أحمر:

أَبُو حَنَشٍ يُؤَرِّقُنَا وطَلَقٌ وعَمَّارُ وآوِنَةَ أُثَالاَ* [28]

فـ"ابن حبناء" أراد (ابن حارثة) فاضطر إلى ترخيمه وهو غير منادى، وتركه على لفظه على لغة من ينتظر، ومثله "ابن أحمر" الذي أراد (أثالة) فاضطر إلى ترخيمه في غير النّداء، وتركه على لفظه أيضا على لغة من ينتظر.

يقول ابن جمعة في هذه المسألة: (وأمّا في غير النّداء فيجوز عند سيبويه أن يرخّم الشّاعر كلّ اسم يجوز ترخيمه في النّداء للضرورة على لغتي التّرخيم كقوله:

أَلاَ أَضحَتْ حِبَالُكُم رِمَامَا وَأضحَتْ مِنكَ شَاسِعةً أُمَامَا

والمبرّد لا يجيزه إلاّ على لغة الضّم، وطعن في رواية البيت على هذا الوجه. ورواه: وما عهدي كعهدك يا أماما وهو تعسّف)[29].

ولم يتوقّف نقد ابن جمعة عند حدود العلماء الذين خالفهم الرأي و بيّن صواب رأيه من خطئهم في اعتقاده، بل إنّه حاول أن يُعامل ابن معطي معاملة طالب العلم لأستاذه، لكن بمعايير ميزان نقدي عمّى عليه بعبارات الاحترام و التقدير، فهو في أكثر من مرّة يوجّه له نقدا ظاهره التغاضي و التجاوز وباطنه التعريض و النّقد اللاّذع، غير أنّ حظوة ابن معطي عند ابن جمعة كانت أكبر وأجلّ من سواها بالنّظر إلى ما كاله من أوصاف أغلبها تحوي ذمّا أو قدحا لبقية من خالفه الرأي من النّحاة؛ والشواهد على ذلك كثيرة أوضحها ما ساير فيه ابن جمعة ابن معطي في مسألة اللّفظ غير المتمّكن الذي يعمّ بقوله: (يريد أن يعمّ المبنيات كلّها، لأن المعرب لمّا كان هو المتمكن، كان المبني هو غير المتمكن ، وفيه نظر؛ لأنّه يدخل في غير المتمكّن الفعل المضارع إلاّ أن يعني به المبني في الأصل)[30].

رابعا: خصائص الدّرس النحوي عند ابن معطي من خلال شرح عبد العزيز بن جمعة الموصلي

اشتملت ألفية ابن معطي على أهمّ المسائل النّحوية مصحوبة ببعض الشّواهد التي تفسّرها وهذه ميزة انفرد بها؛ حيث حوى نظم الألفية الشواهد المصاحبة للقواعد، ومثال ذلك قوله:

و سيبويه جرّ بعد لولا لولاك لولاه رآه أولى

في قوله كم موطنٍ لولايا وابنَ يزيدٍ ردَّ هذا الرأيا

واجرر بحتّى نحو حتّى مطلَعِ وبعد مذْ ومُنذُ إنْ شئتَ ارفَعِ[31]

فقوله: (كم موطنٍ لولايا)شاهد معروف ليزيد بن الحكم الثقفي وهو من شواهد الكتاب[32]،وقوله: (نحو حتّى مطلع) هو نصّ الآية الخامسة من سورة القدر، فقلّما تيسّر لناظم أن يزاوج بين الإشارة إلى نصّ قاعدة ويتبع ذلك بشاهد شعري يمكن أن لا يوافق وزنُه وزن الألفية نفسها، وإن اجتهد في إيجاد الشّاهد المتلائم مع الوزن فذلك من باب التمكّن من نواصي القوافي وأوزان البحور، وليس هذا بعزيز على ابن معطي الذي حاز ملكة النّظم كما تمّت الإشارة إلى ذلك في العنصر الأوّل من هذا المقال.

وقد انفرد النّاظم بعدّة آراء نحوية أبان فيها عن مدى اتّساع معارفه و استقلال شخصيته العلمية؛ فهو مثلا قد منع تقديم خبر (ما دام) على اسمها دون غيرها من أخواتها، فقال:

ولا يجوز أن تقدّم الخبر على اسم (ما دام) وجاز في الأُخَرْ[33]

ورأيه هذا أدّى إلى نقده من النّحاة؛ لأنّه بهذا يخالف ما ورد من أشعار العرب، فقد جاء قول الشّاعر:

وأحبسها ما دام للزيت عاصر وما طاف فوق الأرض حافٍ و ناعلُ[34]

فقوله (عاصر) اسم (مادام) والجار والمجرور (للزيت) خبرها تقدّم على الاسم، وقول الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغّصَةً لذَّاتُه بادّكارِ الموتِ والهرَمِ[35]

وقد خرّجهما النّحاة بتخريجات عدّة. وقد ذهب ابن جمعة إلى: (أنّه ربّما قد نقل ابن معطي هذا الرأي عن ابن الخشّاب عن قوم. ويقول: وقد اعتذر له بأنّها لزمت طريقة واحدة وهي الماضي، جرت مجرى الأمثال، والأمثال لا غير ولأنّ (ما) معها مصدرية، وهي ما في خبرها صلتها، وكأنّه يرى الترتيب كما تصرف في المصدر)[36].

ويذهب ابن معطي في معارضاته العلماء مذاهب شتى يوافق البصريين تارة والكوفيين تارة أخرى بما يتوافر عنده من أدلّة تبيّن أنّه يجتهدُ غاية الاجتهاد في إظهار الصّواب اعتمادا على المنقول و المعقول معا؛ فهو مثلا يساير البصريين في عدّ (إمّا) حرف عطف، وخالفه في ذلك المتأخرون من العلماء كابن مالك وابن عصفور

وغيرهما وحجّة الطرف الثاني أنّ (إمّا) تلازم حرف العطف (الواو) في أغلب الأحيان ولا يمكن الجمع بين حرفين إذا ما اشتركا في الوظيفة، يقول ابن معطي:

و(أوْ) و (إمّا) فيهما مشهور الشكّ والإبهام والتخييرُ[37]

فهو قد أيّد برأيه هذا المبرّد[38].

إنّ لحيادية ابن معطي دلائل كثيرة تكشف عن صفاته بوصفه عالما مجتهدا لكونه لم ينتصر لمذهب بعينه جملة؛ فهو ينتخب من الحجج أقواها وينحاز إلى الفئة التي يبدو له أنّ الحقّ معها، وشواهد ذلك لا تكاد تحصر فهو مثلا منع صرف سكران لعلتين هما الوصفية والنون، وفي ذلك يقول:

وزائدا الوصف كمثل سكران مقابلا سكرى كذا صرف عريان[39]

وهو برأيه هذا يؤيد الكوفيين الذين يرون أنّ المانع من الصّرف لسكران هو الألف والنون والوصف، وهذا ما لم يقل به علماء البصرة الذين يُعلّلون منع الصرف في سكران بإحالته على الأصل لأنّ مؤنّثه سكرى والتأنيث علّة تقوم مقام علّتين[40].

والخلاف بين البصريين و الكوفيين بيّن ظاهر تباعد بين طرفيه فروق كثيرة لتباين المنهجين، فابن معطي لم يكتف بالانتصار إلى بعض آراء الكوفيين في مسألة نحوية واحدة أو أكثر بل إنّه وظّف عديد المصطلحات التي انفرد بها الكوفيون دون غيرهم، ودليل ذلك استخدامه لمصطلح الجحود الذي يقابل مصطلح النفي عند البصريين، كما استخدم مصطلح الصّفة ومصطلح ما لم يسمّ فاعله اللّذان يعوّضان مصطلحا النّعت والمبني للمجهول عند البصريين.

وتظهر سمة الاجتهاد في علم ابن معطي في أنّه حاول أن يتنصّل من الانتساب إلى مذهب معيّن يتعصّب له وينافح عنه؛ فهو يبيّن في أكثر من مناسبة يناقش فيها قضية نحوية أنّه يتكيّف مع الحقيقة العلمية مهما كان مصدرُها، فهو تارة ينتصر للبصريين وتارة ينتصر للكوفيين ونجده مرّة أخرى يقف إلى جانب البغداديين لاسيما أعلامهم من أمثال أبي علي الفارسي وابن جني وغيرهما، ولعلّ تقسيمه لخبر المبتدأ يدلّ على ذلك، إذ جعله أربعة أقسام هي:

- الجملة من مبتدأ و خبر.
- الجملة من فعل و فاعل.
- شرط و جزاء.
- ظرف أو جار و مجرور

وتقسيمه هذا مأخوذ من أبي علي الفارسي[41].

خاتمة

عند قراءة بعض نماذج ابن معطي العلمية من خلال مؤلفاته يتّضح أنّه كان يتّجه بمصنّفاته النّحوية اتّجاه المعلّم الذي يرغب في تيسير المباحث اللّغوية عامّة والنّحوية خاصّة ويكفي دليلا على ذلك نظمه للألفية وتعقّب الشرّاح لها لتكون أداته طيّعة بين يدي طلاّب العلم.

- كثرة الشّروح التي تناولت ألفية ابن معطي تؤكّد حقيقة واحدة هي أنّها لاقت رواجا بين أهل زمانها حتّى وإن طغت عليها ألفية ابن مالك لكثرة تلاميذه وأقرانه الذين أشاعوا علمه في الأقطار.

- يعدّ شرح ابن جمعة لألفية ابن معطي أنموذجا للمتابعات النّحوية التي كانت مسيطرة في القرن السّابع ؛ حيث إنّ مصنف الشّرح حاول أن يستلّ خصوصية شرحه من بين ميزات كثيرة انفرد بها غيره من الشرّاح ولعلّ ذلك منشأه إلى تقارب العهد بينهم وأنّهم كانوا شيوخا أو تلاميذا لبعضهم، ممّا يكشف عن وجود بعض أصداء أفكارهم في شرح من الشّروح متوارث على جهة النّقل والحذو.

ـ ميزة ألفية ابن معطي أنّها باينت ما عليه نظّام المتون من حيث اعتمادهم على بحر واحد ينظمون عليه قصائدهم، وهذا ما تسنّى لابن معطي أن يخالفه ويتجاوزه بوصفه عرفا قارّا، فهو قد نظم الألفية على بحري الرّجز والسّريع نظرا لتقارب أوزان مجزوء الشطر في كليهما، وهذه التفاتة لا تتأتّى إلاّ من خبر النظم وعرف مسالكه، كما أنّ هذه الخاصيّة تبيّن أنّ ابن معطي كان على كفاءة عالية في تقريب البعيد وتيسير الصّعب بحكم رصيده العلمي الذي بزّ به أنداده في القرن السادس والسّابع.

الهوامش

1- تعزى أوّل قصيدة في النّحو للخليل بن أحمد الفراهيدي ذكر ذلك خلف الأحمر ينظر : مقدّمته في النّحو، تحقيق: عز الدّين التنوخي،ص85، دط، 1961، وزارة الثقافة و الإرشاد، دمشق،سوريا.

2- إلياذة هوميروس معرّبة نظما: سليمان البستاني، 13/1،دط، 1994، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

3- إرشاد السّالك إلى حلّ ألفية ابن مالك:ابن قيّم الجوزية، تحقيق: محمود نصّار،33/1، ط1، 2004، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

4- شرح ألفية ابن معطي لعبد العزيز بن جمعة الموصلي، تحقيق: علي موسى الشوملي، 83/1-84، ط1، 2007، دار البصائر، الجزائر.

5- هكذا ذكر ياقوت الحموي؛ ينظر: معجم الأدباء: ياقوت الحموي،قدّم له المستشرق مارجليوث، 35/20، ط3، 1980، دار الفكر، بيروت، لبنان.

6- بغية الوعّاة في طبقات اللّغويين والنّحاة: جلال الدين السيوطي، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم، 344/2، ط2، 1979، دار الفكر، بيروت، لبنان.

7- ينظر إشارة التّعيين في تراجم النّحاة واللّغويين: عبد الباقي اليماني، تحقيق: عبد المجيد دياب، ص29، ط1، 1986م، مركز فيصل للبحوث والدّراسات الإسلامية، الرياض، السعودية.

8- ينظر شرح الشريشي28/1 نقلا عن الصفوة الصفيّة في شرح الدّرة الألفية: تقي الدّين إبراهيم بن الحسين المعروف بالنيلي، تحقيق: محسن بن سالم العميري،20/1، ط1، 1415هـ، مطبوعات جامعة أم القرى، المملكة العربية السّعودية.

9- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: إسماعيل باشا البغدادي،120/3،دط، دت، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان.

10- ينظر الصفوة الصفية في شرح الدّرة الألفية بتحقيق: محسن بن سالم العميري.

11- المصدر نفسه 21./1

12- بغية الوعاة: السيوطي272./1

13- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة155/1، دط، دت، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان.

14- ، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية-: عمر رضا كحالة، 176/6،دط، دت، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

15- ينظر بغية الوعاة: جلال الدين السيوطي226/2، وهدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين-: إسماعيل باشا البغدادي، 789/5، دط، دت، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان.

16- ينظر قائمة هذه الشروح بالإيعاز إلى أماكن تواجدها في مكتبات العالم؛ شرح ألفية ابن معطي: عبد العزيز بن جمعة الموصلي62/1-64، الصفوة الصفيّة في شرح الدّرة الألفية: النيلي19/1-23.

17- شرح ألفية ابن معطي: عبد العزيز بن جمعة الموصلي191./1

18-ينظر مسند الإمام أحمد، تحقيق:أحمد شاكر، 434/5، ط1، 1995، دار الحديث، القاهرة، مصر.

19- الكتاب: أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، 219/1-222، ط1، دت، دار الجيل، بيروت، لبنان.

20- نحو الخليل من خلال الكتاب: هادي نهر، ص13، ط1، 2006، دار اليازوري، عمان، الأردن.

21- شرح ألفية ابن معطي: عبد العزيز بن جمعة الموصلي192./1

22- معاني القرآن: سعيد بن مسعدة الأخفش، تحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد، ص529-539، ط1، 2003، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

23- شرح ألفية ابن معطي: عبد العزيز بن جمعة الموصلي1/.121

24- البيت من الوافر وهو في ديوانه ، شرح: محمد بن حبيب، تحقيق: نعمان أمين طـه، ص407 ،دار المعارف، مصر، (د.ط)، 1996م.

25- النّكت في تفسير كتاب سيبويه وتبيين الخفيّ من لفظه وشرح أبياته وغريبه:الشّنتمري أبو الحجّاج يوسف بن عيسى الأعلم، قرأه وضبط نصّه: يحيى مراد، ص302 ، الطّبعة الأولى، 1425هـ/2005م، دار الكتب العلميّة، بيروت ، لبنان.

26- شرح الأشموني على ألفيّة ابن مالك: الأشموني أبو الحسن محمد بن عيسى، تحقيق: حسن أحمد وإشراف: إميل بديع يعقوب، 80/3،، ط1، 1419هـ/1998م، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان.

27- البيت من البسيط وهو في الكتاب: سيبويه، 272/2 والنكت: الأعلم الشنتمري ص .303

28- البيت من الوافر وهو في شرح أبيات سيبويه: أبو محمد بن يوسف بن المرزبان السيرافي، تحقيق: محمد الريح هاشم410/1 ، الطبعة الأولى، 1416هـ/1996م دار الجيل، بيروت ، لبنان.

، الخصائص: ابن جنّي أبو الفتح عثمان، تحقيق: عبد الحميد هنداوي،155/2، الطبعة 2، 1424هـ/2003م.دار الكتب العلميّة، بيروت ،لبنان.

29- شرح ألفية ابن معطي: عبد العزيز بن جمعة الموصلي1/.124

30- المصدر نفسه1/.126

31- شرح ألفية ابن معطي: عبد العزيز بن جمعة الموصلي2/.709

32- الكتاب: سيبويه374/2

33- شرح ألفية ابن معطي: عبد العزيز بن جمعة الموصلي1/.32

34- البيت لمزرد بن ضرار شقيق الشماخ؛ ينظر: معجم الشعراء: أبو عبيد الله محمد بن موسى بن عمران المرزباني تحقيق : عبد الستار أحمد فراج، دط، 1960،دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.

35- شرح الأشموني على ألفيّة ابن مالك1/.232

36- شرح ألفية ابن معطي: عبد العزيز بن جمعة الموصلي 2/.542

37- المصدر نفسة1/.45

38- المقتضب: المبرد أبو العباس محمد بن يزيد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، 28/3 ، دط، دت، عالم الكتب، القاهرة ،مصر.

39- شرح ألفية ابن معطي: عبد العزيز بن جمعة الموصلي1/.57

40- الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين و الكوفيين: أبو البركات ابن الأنباري، تحقيق: محمد محي الدّين عبد الحميد،406/2، ط1، 2003، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

41- شرح ألفية ابن معطي: عبد العزيز بن جمعة الموصلي1/59.